الزخرف والتجريد:

حوار بين الفن «اللاغربي» والفن الحديث

ماركوس برودرلين*

■ كان ما يربع رواد الفن التجريدي غاية الروع ان ينظر الى انجازاتهم الفنية الثورة كزخرف. لكن عالم «الفن اللاموضوعي» قد انوجد زمنا طويلا قبل ان يبدع «كاندنسكي» عمله التجريدي الاول بالألوان المائية حوالي عام 1911ـ1912 رغم ان هذا العمل كان قد تم وضعه في منطقة الخدمة مؤديا وظيفته كزخرف وتزيين. اما اليوم فاننا نجد بأن التصوير المعاصر من فرانك ستيلا الى فيليب تافي لا يمكن مناقشته ابدا بدون مفهوم الزخرف. وفي ذات الوقت يجب الاقرار وبفضل مارسيل ويشامب جزئيا، وبعد زوال الوهم الذي جادت به الحرب العالمية الاولى بأن نوعا من «الموضوعية الجديدة» قد نشأت مع فن اكثر مفاهيمية. على اية حال فان الزخرف قد مارس تأثيرا قويا على الفنانين التشخيصيين مثل هنري ماتيس وبابلو بيكاسو لكن الزخرف المتحرر من نظامه الصارم ومن تناظره وتكرار الشكل فيه، موضوع على السطح بشكل طلق كما في اعمال ميرو في العشرينيات. في الواقع منذ عام 1900 يمكن الاثبات بأن ولا فنان قد «زخرف» اللوحة بكاملها بما في ذلك الجسم والوجوه والاشياء بصرامة كما فعل بيكاسو صانعا تزييننا فخما. اما ماتيس من جانب آخر فقد ظل بشكل اساسي رساما تشخيصيا لكن متأثرا بفن الاسلام والبحار الجنوبية، غلف الشكل المشخص وبشكل متزايد بسجادة من الزخرف الكثيف.

مائة سنة من تاريخ الفن التجريدي والوثاقة الحاضرة للموضوع بالزخرف تتحدانا باعادة الاعتبار لمعنى الزخرف في تأسيس وتطور الفن اللاموضوعي في القرن العشرين. هل تأثير الزخرف لم يمتد ابعد من وظيفته كعماد «للآرت نوفو» ووضعه بجانب التكعيبية؟ هل ربما لعب حقا دورا تكامليا في تطور فن التصوير التجريدي؟ ألا يثبت عودة ظهوره المتعاقب بأن الزخرف الذي اسقطه ادولف هولز عام 1908 في كتاب «الزخرف والجريمة» لم يتم الامساك به فقط في اعقاب الفن الحديث، بل تسلل في داخل تاريخه البنائي كنوع من «المستخفي سرا» وواصل ان يكون له تأثير هناك كحافز لبعض التطورات!

وهكذا يكون «الزخرف والتجريد» تيمة رئيسية في تاريخ الفن، لكنها تيمة لم يجرؤ احد من قبل بالمخاطرة حقا بتناولها والتعرض لها. للمرة الاولى تتصدى مؤسسة «بايلر» لهذا التحدي الواسع النطاق والمعقد، وتجمع مجالا واسعا من الظاهرات البصرية بالمنطق الفكري للأطروحة. واول ما ستقع انظار الزائر عليه في هذا المعرض، معرض «الزخرف والتجريد» ترتيبات مفاجئة لفن مستقل جنبا الى جنب مع فن تطبيقي، سوف يرى على سبيل المثال اعمال لموندريان ومارك روتكو وجاكسون بوللوك جنبا الى جنب مع صنائع يدوية زخرفية اسلامية، والريليفيات الفنية لفرانك ستيللا ولغرفة الروكوكو في مالينبورغ قرب ميونيخ. انها فرصة النظر من فوق الاسوار والمقارنة، ولا يمكن ان يحدث ذلك الا حين يجري تحرير الزخرف من وظيفته التزينية الصرف ـ الاقرار بطبيعته كفن خالص مستقلا كل الاستقلال عن التقنية والمادة. في الحقيقة ان نظرية الزخرف كانت تنجز تحريرها الى ابعد حدود منذ «عمانويل كانت» تماما.

غلاف الكتاب

واخيرا فان المؤرخ الفينيوي ـ نسبة الى فيينا ـ الواز ريغيل قد اكد وثبت في النهاية التطور التاريخي للزخرف عام 1893 عندما اظهر الكيفية التي تطور فيها اول زخرف اللوتس المصري من خلال النخلة الاغريقية ومحلاق زهرة الاكانتس الرومانية وصولا الى الارابسك الشرقي الاسلامي الاكثر حداثة والاكثر معاصرة وبخيط يمتد عبر هذه التحولات التجريدية للشكل. هذه التطورات الجينية علاوة على الظهور المتكرر للزخرف في الفن الحديث توحي من وجهة نظر معينة بأن التصوير التجريدي في القرن العشرين يمكن رؤيته كاستمرارية لتاريخ الزخرف.

انها بالتأكيد اطروحة مثيرة للجدل وبالطبع يجب عدم مناقشتها لا بل ولا يمكن مناقشتها بالتفصيل في مشروع بهذه الطبيعة. يشكل هذا المشروع نقطة الانطلاق لخيط تتركز عليه العديد من الظاهرات وبمساعدة الزائر الذي يمكن ان يتحرك في ارجاء المعرض الذي يضم 290 عملا فنيا.

الشخصية الاولى والرئيسية للمعرض هي «الارابسك» كآخر زخرف أصيل في تاريخ الزخرف دخل المفهوم الجديد لفن التصوير الرومانسي في اوائل القرن التاسع عشر والفترة المبكرة منه، وكنوع من التسلل الخفي بدأ يؤثر على التاريخ البنيوي للفن وهو يتحرك باتجاه التجريد من خلال الرمزية والآرت نوفو. وكزخرف عربي ينقسم الى الارابسك المستمد من اشكال النبات وأشكال النقش الهندسية والخط التجريدي ايضا. ثم الفرع العضوي (كاندنسكي، ماتيس، بيكاسو).. عندما يجري اسقاط المفهوم الكلاسيكي للمحاكاة الذي ساد تاريخ الفن الغربي ثلاثة آلاف عام فاننا نكون قد اقتربنا مسافة اكبر من جماليات الثقافات البعيدة، حيث لا يزال الزخرف جزءا متكاملا من الممارسة. لا يبرز السؤال عن الجانب الوظيفي للشكل الصرف والفن التجريدي ثانية فقط، بل ونجد انفسنا في مواجهة السؤال ان كان الزخرف سيساعدنا بفهم الطريقة التي تفكر بها الشعوب الاخرى وتشعر. هل يمكن للزخرف ان يكون جسرا لفن عولمي جديد؟ في التحول من الحركة الحديثة الى حركة ما بعد الحداثة يأتي الزخرف الى الواجهة في تاريخ الفن ويحل محل الطليعي الذي يفقد بالتدريج حافزه. والفن الاسلامي هو ذلك الذي لا سبيل الى نسبته الا للفضاء الجغرافي ـ الحضاري الاسلامي، والذي يمثل وسيطا بصريا كونيا قمينا بمخاطبة فئات سكانية متنوعة الاصول والثقافات هي تلك التي ضمها الاسلام بعد انتشاره.

انه معرض يبرز للمرة الاولى وبشجاعة وجرأة لم نعهدها من قبل موضوعة الزخرف والارابسك التي استند عليها تجديد الفن الغربي. انها الخصوصية الجمالية الاسلامية التي يجب الاقرار بوجودها كواحدة من التقاليد الفنية الكبرى في التاريخ البشري.

هذا هو المعرض الحادي عشر الخاص الذي اقامته «مؤسسة بييلير» منذ افتتاحها في خريف عام 1997. انه ايضا المشروع الاكبر والأوسع مدى.

مشروع يعالج ثيمة عظيمة العمق في تاريخ الفن ونظريته. اثناء التحضير لهذا المشروع غدونا اكثر وعيا بأننا لا نعمل على معرض فني فقط، بل كنا نتصدى لظاهرة تمس العديد من الميادين، وذات مغزى يونيفرسالي لوضعنا اليوم. اعتقد أن هذا المشروع سيكون تجربة ذات مفعول ابعد من المشروع ذاته. ونأمل أن بعضا من بهجتنا البصرية والفكرية سوف تنتقل الى عموم الافراد الذين سيأتون لرؤيته.

احد اعمال ميرو

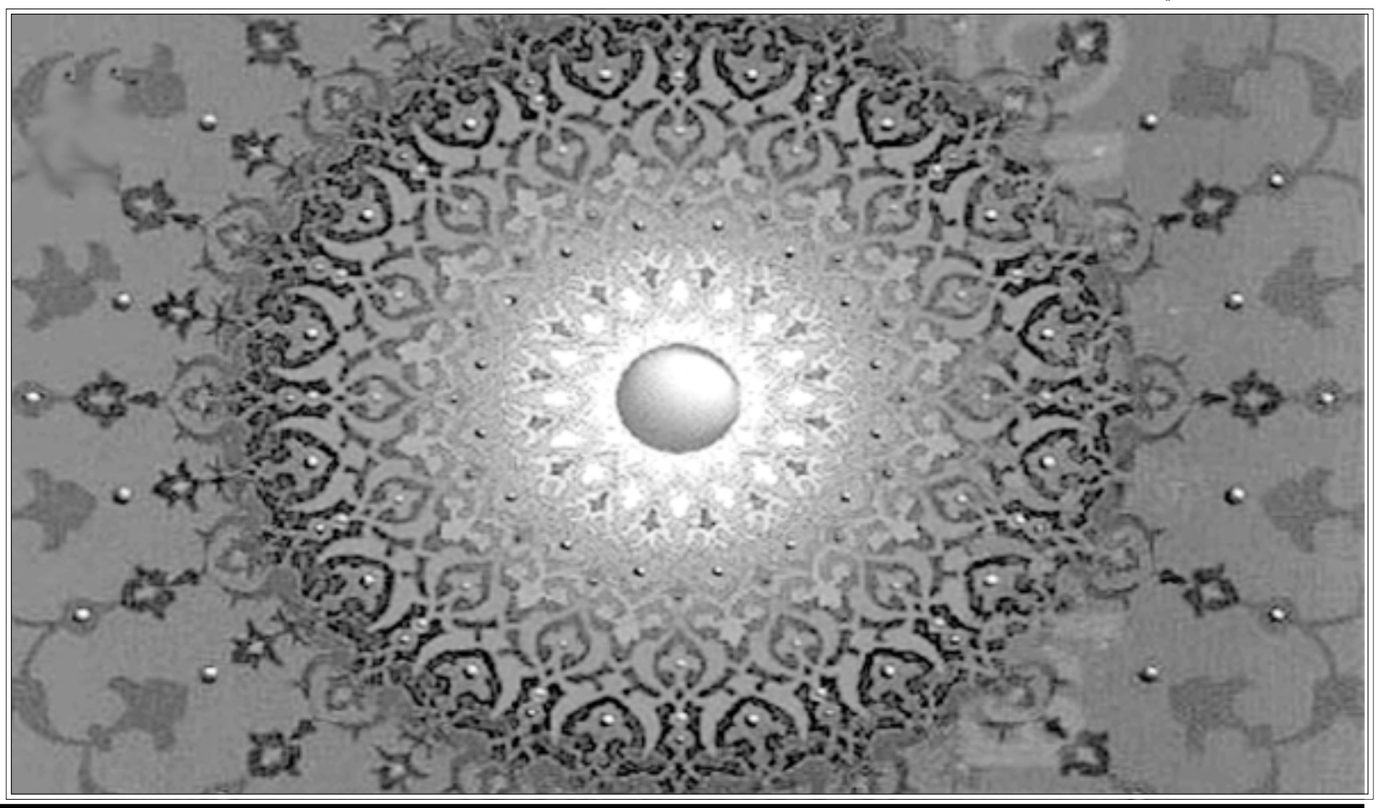

ترجمة: رضا حسحس

*القيّم الرئيس لمؤسسة بييلير في مدينة بازل ـ سويسرا عام 2002

تداعيات

كمال ناصر: صورةٌ عن طائرِ الفينيق

وليد أبو بكر*

■ قلت لزميلي، وأنا أرى كمال ناصر لأول مرة: إنه يذكّرني بطائر ما. كان يقف في المنارة الراحلة وسط رام الله مع آخرين، وكان الناس يعبرون من حوله، ويظل طائرا فريدا بينهم. تأملته طويلا ولم أقترب. كانت هيبة الشاعر تشع منه أكثر من هيبة النائب.

حدث ذلك صدفة، عندما مررت برام الله للمرة الأولى في حياتي، بعد انتخابات 1956.. يومها أيضا رأيت فدوى طوقان في مقهى الأريزونا الراحل: هل كانا يجلسان معا، أم أنني تخيلت ذلك في مرحلة تالية، تداخلت فيها الذكريات؟

عودتي إلى رام الله مقيما بعد عام، لم تحمل من الحظّ ما حملته الزيارة العابرة. كمال ناصر كان قد اختفى، ولم يقدر لي أن أراه إلا بعد ستة عشر عاما، وكانت تلك هي الرؤية الأخيرة.

حاولت أن أجد طائرا جميلا رقيقا وقويا في الوقت ذاته، أشبه به الشاعر الوسيم الجريء، ولم أستطع، مع ذلك اكتشفت مبكرا أن الصورة لم تكن لديّ وحدي. فدوى طوقان، صديقته، التي عرفتها جيدا بعد ذلك، قالت له «يا طائري» غير مرة وهي تهديه في محنته قصيدتها «إلى المغرّد السجين»، وهو أنبت لنفسه جناحا حين خاطب ثورة الجزائر:

يا جناحي هذي رحاب الجزائر كلّ شبر بها على الضيم ثائر

ثم حين خاطب العراق:

يا جناحي هذي العراق الحبيبة هذه دارة النضال الرحيبة

وتكرر ذلك حتى تمنّى هذا الجناح قويا:

يا إلهي هب لي جناحا قويا أتحدى به فضاء بلادي
وسأطوي به الربوع نبيا ناشرا من سمائها أحقادي

وهو لم يحدد نوعية هذا الجناح في شعره، لكنه فعل في نثره حين كتب إلى حبيبته: «لا أفهم أن أكون، أنا النَّسرُ الشامخ، عرضة للمساومة. أنا أفضّل لهذا النَّسر أن يلويَ منقاره تحت جناحيه فيموت موفور الكرامة». وعندما لُوي منقاره بالفعل، التقطت فدوى طوقان الصورة، ومنحته صفة النسر في قصيدتها «ذهب الذين نحبّهم»:

نَسرا فنَسرا غالهم وحش الظلام
سرق السموّ من الأعالي..
آه يا وطني
عليك من الدم الغالي سلام

لكنها لم تتوقف عند صورة النسر الذي يموت، فكمال ناصر، في طبيعته، لم يأخذ من النسر إلا الكبرياء، وكان أرقّ وأجمل من أن يكون نسرا:

أواه يا وطني الحزين
كم ذا شربت وكم شربنا
لا أنت ارتويت ولا ارتوينا
إنّا سنبقى ظامئين
عند الينابيع الحزينة سوف نبقى ظامئين

حتى قيامتهم مع الفجر الذي حضنوه
رؤيا لا تموت ولا يذوب لها حنين

لقد تحدث بعض النقاد عن قيامة المسيح، فهلا تذكرنا الآن طائر الفينيق؟ في حياته التزم كمال ناصر بهذا الطائر الأسطورة. لم يكن غريبا عليه أن يقول: «ولدت أحمل جثماني على كتفي» ليوحّد جدلية الحياة والموت، كما عند الطائر. ثم يعود ليؤكد ذلك في قصيدته «وقيل مات»:

وفي غد
ربما تدركهم حقيقة الحياةِ
في الوجود والعدم
فيعرفون كيف يولدون في المنون
وكيف يولد المنون في الحياة

وربما كان معظم ما فعل، من وحي ذلك الطائر: آمن بالتاريخ المشترك الذي بدأ منذ عصر الأسطورة وتمدد، وحين كانت «بلادي» ترد في شعره، كانت تعني «بلاد الوحدة»، وهو الهمّ الذي عذبه كثيرا، لأن الوحدة التي تبدو في متناول اليد كانت بعيدة المنال. المعادلة التي اختارها الحكام في تفتيت الوطن الكبير أضاعت الوطن الصغير. لذلك عادى من فعل، وأحب من حمل الحلم.

صورة الوحدة هذه ظلت هاجسا عند كمال ناصر، ومن خلال موقعه في منظمة التحرير الفلسطينية، حاول أن يطبق قناعته: خلق الإعلام الموحّد وصحيفته «فلسطين الثورة»، حتى يكون للثورة الفلسطينية صوت واحد، كما أسس الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

في هذه المناسبة الأخيرة، قبل رحيله بعام، التقيته أول لقاء حقيقي. كان جلّ ما يشغله هو أن ينجح تأسيس الاتحاد، وكان يخشى على النجاح من تدخّل الفصائل. لم يستطع أن يقاوم «توزيع» الأسهم في الإعلام الموحد، ولا في الاتحاد. كان يشكو من أن كل فصيل «يفصّل» إعلاميين خاصين به، وأدباء، سيكونون لبنات الفشل، الذي يستمر حتى هذه اللحظة.

لم أتابع ما جرى في الإعلام الموحد، الذي انتهى إلى إعلامنا الحاليّ العاجز، ولكني تابعت ما وصفه كمال ناصر بأنه «اتحاد القراء»، وأخذته عنه الصحافة دون أن تنسبه إليه. لقد رأيت بأمّ عيني ذهوله أمام هذا الحجم الهائل من «الأعضاء» في المؤتمر التأسيسي للاتحاد، في قاعة جمال عبد الناصر بجامعة بيروت العربية، فبراير 1972، إلى حدّ جعله ينسى أين وضع أوراقا كتب عليها كلمة الافتتاح، واضطره للعودة إلى منزله للبحث عن نسخة منها. ومع ذلك لم تسقط ابتسامته عن شفتيه، وصورة ذلك الطائر لم تفارق قامته.

في ذلك الوقت، كان قد وصل مرحلة الإحساس بالموت يحيط به، فوزع إحساسه على كل من يحيط به، وهو يدرك أنهم «يقتلون الفكر» بعد أن قتلوا غسان كنفاني:

أعلم أنني انتهيت
لم يبق من أحبه
ومن يحبني
وانطفأ المصباح
لم يبق فيه زيت

ما رواه عنه أصدقاؤه من قول إنه كمال بطرس وليس عنترة بن شداد، وإنه ليس غيفارا، ولكنه ليس جبانا، يوحي بشخصيته التي تعشق الحياة، لكنها لا تخشى مواجهة الموت الذي لم يخف مشاعره حوله حين قال: «إنني أكرهه جداً جدا».

تسجل لكمال ناصر صفات كثيرة، منها الجرأة في الرأي والموقف، قولا وكتابة، والإيمان بالعروبة والوحدة فكرة وسلوكا، وحب الحياة والدفاع عنها، وغير ذلك من الصفات، لكنه يكاد ينفرد بصفة لا يجاريه فيها أحد: الإخلاص، فرديا أو وطنيا: لقد أحبّ امرأة واحدة في حياته، ولم ينلها، وظل وفيّا لهذا الحب، رغم كثرة من أحببنه من النساء، أو سجلن أيامهن معه. وأحب وطنا واحدا، لم ينله، وظلّ وفيا له، رغم كثرة الفرص التي أغرت غيره من ساسة كان يخشاهم على وطنه، وهو ما يزال بشعره يخرج من الرماد حتى اللحظة ويفعل:

فيم التناحر والأخصام ترمقنا إثما، وتلقي على أوهامنا الرُّهَبا
تلتذّ بالفتنة الكبرى وتشعلها وتزرع الإفك بين الناس والرِّيَبا
أخشى عليك بلادي شرّ صاعقة أخشى النوازل، أخشى الساسة النُّجُبا
أخشى الخلافات أن تودي بوحدتنا بالأمس جرّت علينا الويل والحربَا

رحم الله كمال ناصر، وهو ما زال يعيش معنا ما نعيش.

* كاتب من فلسطين

خيل الحكومة عندما تعجز..

فيصل عبد الحسن*

■ لم تكن المرأة تعرفه في هذا السوق المزدحم بالناس والبضائع والسيارات، اعتقدت أنها تعرفه أو أنها رأته منذ زمن بعيد، ربما رأت رجلا غيره واعتقدته هو.. ربما... يا لهذه الذاكرة المضطربة، لا تستطيع أن تتيقن من أي وجه أو من أي شيء بعد اليوم، ألم يقولوا لها إنها مصابة بمرض..... وحاولت أن تتذكر اسمه لكنها نسيت أسم المرض أيضا، تريد الآن أن تتذكر عنوان بيت أهلها فقط ولا تستطيع:

وحاولت أن تختبر ذاكرتها بقراءة قصيدة هنري ميشو التي أعجبت بها منذ فرضها عليهم الأستاذ في درس الترجمة عن الفرنسية حين كانت طالبة في الجامعة، وحفظتها عن ظهر قلب وكانت ترددها بين الحين والآخر خصوصا حين تتفاعل داخلها مشاعر غريبة تمتزج بين الواقع والخيال، محاولة طيلة الوقت أن تفرق بين الحلم والواقع، حاولت أن تتذكر لكنها لم تنجح، كانت فيما مضى تردد بصوتها الأبح المحبوب من قبل السامعين مقاطع القصيدة وهي تحرك رأسها يمنة ويسرة لتنال جدائلها كسبائك الذهب الإعجاب من زملائها وترسم على شفتيها أجمل ابتسامة ممكنة تدربت عليها طويلا أمام مرآة دولاب غرفة نومها، وكانت فيما بعد تعزوها إلى شقاوة الشباب وتطلعاته البريئة لنيل إعجاب الآخرين في الكلية والمحلة، هي الآن لا تستطيع أن تتذكر تلك القصيدة الهائلة التي يقول فيها الشاعر:

(كنت أحلم أني نائم
وبالطبع لم تنطل علي الخدعة،
إذ كنت أعرف أنني مستيقظ
إلى أن حلت اللحظة التي استيقظت فيها
فأدركت أنني كنت نائماً.)

كنت أحلم أني نائم، هذه القصيدة التي حفظتها ونلت في ترجمتها أعلى درجة بين أقراني من الطلاب وكنت أرددها منذ سنوات نسيتها أيضا، يا إلهي لقد انتهيت حقا، وكل الذي حدث لي بسبب ذلك الحب المريض الذي ربطني بعجيب، هذا الرجل العجيب حقا، الغيور حد العجب ما أن تزوجني حتى حجبني عن الناس جميعا، حتى أنه كان يتوسل لي أن لا أذهب إلى المحلات التجارية لشراء حاجات البيت وكان يذهب بنفسه ليقضي لي أي حاجة أطلبها وكنت أعجب لصبره العجيب وهو يلبي جميع طلباتي الصغيرة والكبيرة دون كلل أو ملل، وحين كنت اسأله، لماذا لا يتركني أساعده في بعض الأمور، كان يخبرني وهو يقبلني، أني حبه الوحيد ووعده الأخير، وأنه لا يطيق أن يراني أحد، وهو حريص على سعادتي وإرضائي مهما كانت الصعوبات والشدائد التي تواجهنا معا (لم أكن جميلة للحد الذي أيقظ جنون غيرة عجيب بهذا الشكل المريض ولم أكن امرأة طائشة لا تؤتمن على شرفها وشرف زوجها فتمنع من الخروج إلى الحياة والناس كما فعل معي عجيب، فقد ترعرعت في عائلة متوسطة الحال متدينة تحاسب أولادها وبناتها حين يبدو عليهم أنهم على وشك خرق تقاليد الأسرة أو الخروج على ما أمر به الدين.) كان خطأي الوحيد القاتل أني أطعت عجيب وغفرت له حبسي في البيت وصدقت كلام أمي الجاهلة وأنا الفتاة الجامعية، والتي كانت تخرق لي طبلة أذني وأنا اتصل بها هاتفيا معبرة لها عن ضيقي بهذا السجن الذي حبسني فيه عجيب، قائلة دوما بنبرة الأم الصالحة المحبة لابنتها والتي لا تتعب من كيل النصائح:

- الزوج المحب هو الذي يقضي جميع حاجات زوجته..
- الزوج الغيور على زوجته هو الزوج المخلص إلى الأبد...
- الزوج الصالح هو الزوج الذي يمنع زوجته من أن يراها الناس..

وتتابعت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات وأنا في سجني وعجيب مندوبي الوحيد إلى الحياة والناس والعالم وبسبب عدم خروجي إلى خارج البيت وعدم تنفسي هواء نقيا وبقائي لفترة طويلة بين جدران أربعة بدأت تسوء صحتي ويظهر الشيب في رأسي وبدأ القلق والتوتر يسيطران على تصرفاتي، وفي بداية محنتي أخذت كل صديقة تزورني ولا أبادلها الزيارة بسبب زوجي عجيب تفتر علاقتها بي وتتوقف عن زيارتي، فالعلاقات بين الناس مثل الزرع الذي لا يحصل على العناية والسقي المستمرين فإنه يصفر شيئا فشيئا ويذبل ويموت...

وأخذت صاحباتي يغادرن مكانهن في قلبي واحدة بعد الأخرى فلكل واحدة منهن مشاغلها ومشاكلها، وقد شاء الله أن لا نرزق أنا وعجيب بأطفال، والحمد لله لما فعل بنا ربنا فهو العارف بالغيب وعارف بما سيحل بزيجتنا، فلماذا يؤذي طفلا أو طفلين ويجعلهما ضحية زواج فاشل وعلاقة زوجية مرضية ؟ ورزقت صديقاتي بأولاد وبنات وانشغلن بما رزقهن الله عن صاحبتهن المحبوسة في دارها، حيث عجيب الذي يقول: (شبيك لبيك عبدك بين يديك)، بعضهن كن يحسدنني ويذكرنني بأزواجهن غير الميالين بهن وأولادهن يمضون وقتهم هنا وهناك، وهن يتحملن كامل مسؤولية الأبناء، ابتداء من توصيلهم إلى المدرسة وحتى انتظارهم عند باب المدرسة ومراجعة الأطباء حين يمرضون والبحث عنهم في بيوت الجيران عندما يتأخرون في الرجوع إلى البيت ومصاحبتهم في الأعياد والمناسبات المدرسية، ليس هذا وحده بل ومشاركتهم شجونهم ومشاكلهم ومشاجراتهم مع أبناء الجيران، هذا غير قضاء حاجات البيت من تسوق وشراء ملابس للأبناء وتسديد أجور الهاتف والماء والكهرباء وتسديد فواتير الديون وبعضهن موظفات يؤدين كل هذه الواجبات إضافة إلى واجباتهن في الوظيفة وكل واحدة منهن تقول لها:

- ما أحلى وحدتك، ما أعذب سجنك الدافىء الجميل، يا ليتني كنت مثلك لأخلص من كل هذا العذاب وهذه الهرولة التي لا تنتهي.. وهنيئا لك بكل هذا النعيم فقد كنت خير فتاة فينا وجازاك الله بهذا الزوج المحب، المقيم على خدمتك ليلا ونهارا لا يكل ولا يمل كأنه عفريت مصباح علاء الدين المطيع...هنيئا لك على هذه الجنة التي تعيشين فيها.. وليت لنا مثل ما وهبك الله تعالى..

كانت تتحير في أن تجد الجمل المناسبة التي ترد بها على هذا السيل من كلمات الابتهاج والفرح بالخلاص من الواجبات والأعباء، ماذا تقول لهن ومهما تقل لهن فهي محسودة على سجنها.. فتلوذ بصمت رهيب تظنه الحمقاوات موافقة على إطراء العيش الذليل الذي تعيشه صاحبتهن المسكينة..

أخذت تشعر مع مرور الأيام بضجر قتال وآلام في القسم الخلفي من الرأس وكانت داخلها رغبة دائمة في البكاء من دون سبب، وربما تفاجئها نوبة البكاء وهي في وضع لا يمكن البكاء فيه ومن يفعل ذلك يتهم بالجنون وعندما أخبرت أمها بما يحدث لها من نوبات بكاء وضيق، اعتقدت الأم كما تظن باقي النساء غير المتعلمات أن ما يحدث لابنتها هو بتأثير نوع من الجن، الذي يركب الزوجات الصالحات ولا يغادرهن إلا بعد أن يتركهن وهن قريبات من الجنون، وعندما عرف عجيب من أمها بهذا الأمر تراخت قبضته على باب سجنها ويا ليته لم يفعل ذلك وبقي كما كان سجانا قاسيا حتى النهاية، فقد بدأت رحلتي الطويلة من العذاب مع أمي وصاحباتها، وممن لديهن خبرة في علم محاربة الجان وعرفت ما لم أعرفه من قبل، عرفت أن شيطانا يكلف بكل إنسان فإذا مات أو قتل تحرر وعاش بقية حياته، وعرفت أن أعمار الشياطين طويلة جدا بالمقارنة بأعمار البشر ولهذا قد يحضر الشيطان القرين بعد موت الإنسان أو مقتله على هيئته بل وبصوته في الغرف الفارغة أو البيوت المهجورة لفترة طويلة، وربما مثلت الشياطين جريمة القتل في مكان حدوثها نفسه وقد ينجح البعض في استحضار القرين لبعض من ماتوا من البشر وهو ما يسمونه بمجلس تحضير الأرواح، وقد رأيت الكثير من هذه المجالس المرعبة، رعب ليس له مثيل تعرضت له في رحلة البحث عن علاج لمرضي، وحكايات سمعتها أغرب من الخيال كنت أصدقها حالما أسمعها فيزداد قلقي ويزداد حالي سوءا. وكان عجيب ينظر لي نظرة اليائس كأنه ينظر إلى علبة ثقاب فارغة لا قيمة لها وعليه أن يرميها في أقرب سلة نفايات، وكان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة المناسبة ليطلقني، وحاولت أن أسترجع بعض الثقة بنفسي بأن قررت أن أذهب إلى طبيب نفسي لطلب العلاج ووافق عجيب على مضض ورافقني في زيارتي للطبيب وعندما عدنا من الطبيب سخر مني قائلا: عليك أن تفرحي الآن فأنت حسبما أخبرك الطبيب تتمتعين بازدواج الشخصية فأنت الآن على حد قوله.. لن تعاني بعد الآن من الوحدة في البيت.. وكركر ضاحكا كأنما سمع نكتة...

لم يفد الطبيب النفسي كثيرا لأن مرضي تحول فيما بدا علي من أعراض إلى مرض عضوي، أصيبت خلاله خلايا المخ، وعندها بدأت رحلة النسيان المريرة تأخذ طابعا خطيرا، أتذكر الآن شيئا لأنسى شيئا آخر.. أتذكر أشياء حدثت منذ سنوات وأنسى اسم الشيء الذي أخبر به منذ لحظة، وعند ذلك صنع معي عجيب مثلما كان يفعل بخيل الحكومة عندما تعجز عن الخدمة، فقد طلقني وهو غير آسف هي ذاتها طلقة الرحمة التي توجه إلى الخيول العاجزة، فعدت إلى بيت أهلي مريضة، مكلومة الفؤاد لا أتذكر بعد ذلك ما حصل لي ربما سأتذكر ذلك بعد أن أتذكر أين أسكن، وما هو عنوان بيت أهلي لأعود إلى البيت واقسم أني لن أغادره بمفردي ثانية حتى أشفى من مرضي، أما الآن فعلي أن أبحث في الوجوه عن وجه أعرفه يرشدني إلى بيت أهلي وسط هذا السوق المزدحم، ربما ذلك الوجه أعرفه إنه ينظر باتجاهي ويبتسم ولكنه يمر بي دون أن يحييني، إنه لا يعرفني، وأنا لا أتذكر أني رأيته من قبل يا لهذه الذاكرة المثقوبة، ستضطرني يوما أن أصبح شريدة، مثل خيل الحكومة العاجزة.

* كاتب من العراق يقيم في المغرب